العام الهجري الجديد [وقفة وتأمّلات]

بادىء ذي بدء نحمدُ اللهَ تعالى أن مدَّ في الآجال ، وأنسأَ في الأثر ، وأطالَ في العمر ، ونسأله تعالى السّداد في الباقي ، والعفو عن زلل الماضي .

أحبابي : ها نحن – بفضل الله تعالى - قد تقلّبنا في الثلاثينات من أعوامنا الهجرية [منذ ١٤٣٠ وانتهاءً بـ ١٤٣٩] ، وقبلها عشرينات قرننا [١٤٢٠ هجري] ، ومنّا من أدركَ عشراته [١٤١٠ هجري] ، ومنّا من أدرك ألفاً وأربعمائة صافية [١٤٠٠ هجري] ! ومنّا من أدركَ ما قبل ذلك !

أربعون سنة مضت على بعضنا ، وثلاثون ، وعشرون ، وربّما أكثر من ذلك بكثير !

ذهبت سريعة مليئة بأحداثها مرّت سريعاً كالأحلام !

سلْ نفسك ، وسلْ غيرك عن هذه العشرات من السّنين كيف مضت ستسمع الجواب وأنّها :

[مرّت سريعة كلمح البصر أو هي أسرع]

تُقلّب ناظريك في آخر ورقة في تقويم عامك المنصرم فتعود بكَ الذاكرة لعمرك الذي تفلّت منك وأيامك التي انقضت ومرّت !

أحقاً انتهى هذا العام ؟

أصدقاً قد بلغتُ هذا السنّ ؟!

يا الله ما أسرع مرور الأيام ؟!!

يا الله ما أسرع تفلّت الساعات ؟!!!

مضت علينا ، وانقضت من حياة النّاس ، ذهبت من حياة من أطاع ربه ، ومن حياة من عصاه !

انتهت من دنيا من اغتنمها في قُربه من ربه بلزوم طاعته ، وممّن مَن أذهبها في لذاته وشهواته

مضت على الصنفين ولكن يبقى فرقاً جوهرياً بينهما :

(هذا رابحٌ ، وذاك خاسر)

تذكّر الآن من مات ممّن تعرف

ما الفرق بينكَ وبينه ليموت هو وتبقى أنت ؟!

هل أنتَ أكمل منه صحّة ؟!

أو أنتَ أقوى منه جسداً ؟!

أو أنتَ أقدر لدفع الموت عنكَ منه ؟!

لا ، ومالكِ يوم الدين ؛ بل أنا وأنتَ مثلهم ضعفاء ليس بمقدورنا دفع الموت عنّا

ولكنّها آجالٌ محسومة ، وأعمارٌ مكتوبة ، ومددٌ محددة لكلّ إنسان

ويبقى أن نشكرَ الله تعالى على مدّ العمر وطوله للتّوبة ، وأن نعملَ صالحاً ونزداد من الطاعات .

لنتذكر أيُّها الأحباب في الله تعالى أننا سنُسأل عن أوقاتنا التي هي أعمارنا ، قال ﷺ " لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتّى يُسأل عن عمره فيما أفناه " السائل هو الله عزَّ و جلَّ ، من لا تخفى عليه خافية ، فهل أعددنا لهذا السؤال جواباً ؟!

للأسف تمرّ أيامنا ولياليا التي هي أعمارنا بدون شعور بقيمتها أو مدى مسؤوليتنا عنها

بل تمرّ مواسم الخيرات فنضيّعها و كأننا نضمن أن تأتيَ علينا مرة أخرى !!

لنسترجع معًا ذكريات عام مضى "٣٥٥" يوم في عام ١٤٤٣هـ

بصعوبة قد نتذكّر بعض الأوقات السعيدة ، بعض الأحزان ، بعض اللحظات المؤلمة !

أما تفاصيل الحياة فهي في طيّ النسيان كأنّها لم تكن كظلّ زائل !

ولعلّنا عند تأمّل مسيرة الأعوام نتذكّر أنَّ كلّ عام يقربنا إلى اللقاء الذي لا يعلم كيف يكون إلا الله تعالى مع ملك الموت ، فأنا وأنت في هذا العام أقرب إلى الموت منّا في العام الماضي ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : " ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه نقص فيه أجلي ولم يزدد فيه عملي " .

تأمّل هذا التقويم السنوي الذي فتحته في أوّل يوم من محرم ، وها أنت اليوم تَقلب أخر ورقة منه !
إنّما أنتَ مثل هذا التقويم ، قال الحسن البصري - رحمه الله - : " يا ابن أدم إنما أنت أيام كلما مضى منك يوم مضى بعضك "

إنّا لنفرح بالأيامِ نقطعها *** وكلّ يوم مضى يدنى من الأجلِ
فاعمل لنفسكَ قبلَ الموتِ مُجتهداً *** فإنّما الربح والخسران في العملِ

انظر حولكَ إلى هذه الشّمس ، كلّ يوم تطلع من مشرقها وتغرب من مغربها ، ففي طلوعها وغروبها إيذان بأنَّ هذه الحياة ليست دائمة ، وإنّما هي طلوع ثم غروب ، انظر إلى هذه الشهور كيف تهلّ فينا بأهلّة صغيرة كما يُولد الطفل ، ثم تنمو رويداً رويداً ، كما تنمو الأجسام حتى إذا تكامل نموّها أخذت بالنقص والاضمحلال ، وهكذا عمر الإنسان ، فاعتبروا يا أُولي الأبصار ، انظر إلى هذه الأعوام تتجدّد عاماً بعد عام ، فإذا دخلَ العام الجديد نظرت إلى آخره نظرة البعيد ، ثم تمرّ الأيام والليالي سراعاً ، فينصرم العام كلمح البصر ، فإذا أنت في آخر العام ، وهكذا عمرك تتطلّع إلى آخره تطلّع البعيد ، فإذا بك قد هجم عليك الموت { وَجَاءت سَكرةُ المَوتِ بِالحَقّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنهُ تَحِيدُ } ربّما يُؤمّل الإنسانُ بطول العمر ، ويتسلّى بحبل الأماني ، فإذا بحبل الأماني قد انصرم ، وببناء الأماني قد انهدم !

لقد أخبر ﷺ كما في حديث أبي هريرة عند الترمذي " أن عمر أمّتي من ستّين سنة إلى سبعين "
وهذا يعني أنَّ من بلغ الأربعين من العمر بقي له عشرون سنة إن كتبَ الله تعالى لنا ولهم الحياة كي يصل للستّين فضلاً عن أنَّ الكثير من النّاس قد ماتَ قبل الأربعين ، كما أنَّ العديد من عمَّرَ في الحياة بعد السبعين ، ولكن الحكم هنا على الغالب وهذا واقع ومشاهد .
فهل عشرون سنة كافية لأن نحيا على طاعة الله تعالى ؟
ثُمَّ وهو الأهم أنه ليسَ لأحد كائناً من كان يملك ضماناً بأنَّ حياته مُستمرّة حتى الستّين !
قال تعالى : { وَمَا تدري نَفسٌ مَاذَا تَكسِبُ غَداً ومَا تَدرِي نَفسٌ بأَيّ أَرضٍ تَمُوت } وهذا يعني أنَّ المُبادرة للخيرات والمسابقة لنيل رضا المولى عزَّ وجلَّ تبدأ من الآن ، نعم الآن وبعد انتهائك من قراءة هذا المقال مباشرة !

أخي : راجع نفسك و حاسبها ، هل زادت طاعاتك خلال هذا العام أم نقصت ؟
كيف حال قلبك مع الله تعالى ، هل زاد إيمانك أم نقص ؟
كيف هي صلاتك ؟ صيامك ؟ صدقتك ؟
كيف حالك مع كتاب الله عزَّ و جلَّ ؟
كم علماً نافعاً نشرت ؟ كم مُخطئًا نصحت ؟
و أيضًا كم إنسانًا اغتبت أو آذيت ؟

راجع نفسكَ الآن فأنت ما زلت على قيد الحياة ، ولا تعلم هل سيأتي عليكِ عام أخر أم لا ؟
فهناك أناس ماتوا خلال هذا العام ، بكينا عليهم و تأثّرنا بفراقهم ثُمَّ ماذا ؟ استمرّت حياتنا و نسيناهم
وفي يوم من الأيام سنكون مكانهم وسيُبكَى علينا ثم نُنسى و لن ينفعنا حينها إلا ما حملنا معنا من أعمال صالحة تكون رفيقنا و مؤنسنا في قبورنا و زادًا لنا عند لقاء ربنا .

خاتمة القول :
إنّنا نعيش الأيام كلّها في غفلة ، فلننتبه اليوم ، ولنقف كما يقف المُسافر على المحطّة ، ينظر كم قطعَ من الطريق وكم بقيَ عليه منه ؟
ولنفتح دفاترنا كما يفتح التاجر دفاتره ، لنرى ماذا ربحنا في سنتنا التي مضت وماذا خسرنا ؟
ولنمد أيدينا ، فنقول : يا ربنا ، اغفر لنا ما سلف ، ووفّقنا فيما بقي .
اللهم إذا كتبتَ لنا أن نعيشَ إلى مثل هذا اليوم من قابل ، فاجعل ما يأتي خيراً لنا وللمسلمين مما ذهبَ وإلّا فاكتب لنا بفضلكَ وكرمكَ حُسن الخاتمة ، واغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنّا سيئاتنا وتوفّنا مع الأبرار .